محاضرات مقياس الارشيف والتوثيق:

المحاضرة الخامسة: أهمية الوثائق الأرشيفية في كتابة التاريخ:

القيمة العلمية للوثيقة التاريخية:

يعرف الباحث مارسيل رينارد الوثيقة التاريخية"بأنها وثيقة مكتوبة شاهدة على الماضي البشري، بأية لغة كانت، شريطة أن تكون أصيلة".

لأنها تشكل المادة الأولية في التاريخ، أي أنها تحمل طابع فترة معينة، وتحليل النص التاريخي يتطلب المام الباحث بمنهجية لها شروطها وضوابطها العلمية في بحث الموضوع، وبها يمكنه من الحصول على مختلف أدوات البحث بالتحليل والإلمام بالتصورات الكلية في فهم وتفسير وتحليل المواضيع التاريخية واكتساب المعرفة التاريخية.

عرف التاريخ على أنه علم يبحث في كل الأحداث و الوقائع التي قام بها الإنسان منذ أن وجد في الماضي و كان هدفه هو معرفة الإنسان بنفسه، أي أن يعرف طبيعته كإنسان، و يرى "كولنجود" في كتابه فكرة التاريخ أن " معرفتك بنفسك معناها معرفة ما تستطيع أننفعل".

حيث إن كتابة التاريخ الصحيح لا تبدأ إلا بالنظر إلى المادة الخام الأولية كأحد عناصر البحث العلمي، و كما تستخدم في الكيمياء و الفيزياء عناصر الفلزات و المواد الكيماوية الخاصة بالتجربة العلمية، تستخدم في الدراسة التاريخية مادة خام أولية و هامة للبحث العلمي و هي الوثائق الأرشيفية التاريخية التي تعتبر بمثابة الوقود الذي يحتاج إليه المحرك لتأدية وظيفته بالنسبة للكتابة التاريخية، و هي أيضا لب التاريخ، و المصدر الأول للكتابة التاريخية، و بغيابها يصعب على المؤرخ كتابة التاريخ الصحيح لأنه لا يستطيع التعرف على الماضي مباشرة إلا من خلال الآثار التي خلفت وراءه.

إن العلاقة بين علمي التاريخ و الوثائق علاقة عضوية تربط المؤبخ و عالم الوثائق برباط الهدف الذي يسعى إليه كل منهما و هو الوصول إلى الحقيقة، و لقد أصبح المنهج و الوثائقي أحد الروافد الأساسية في مجرى الحقائق التاريخية فبدون الوثائق و أشكالها المختلفة و المخطوطات لا يمكن كتابة التاريخ، و أي تاريخ يكتب في غياب الوثائق و المخطوطات تاريخ ينقصه الكثير من الحقائق فالوثائق تمهد السبيل أمام المؤرخ لكتابة بحوث مبتكرة و مما يزيد من قيمة الوثائق أن تكون مترابطة و فيها استمرارية بسبب نموها الطبيعي المتسلسل زمنيا، مما يسهل على المؤرخ مهمة البحث العلمي و يمكنه من الوصول إلى أحكام صحيحة لاعتماده على مجموعات كبيرة من الوثائق المتكاملة و ليس على نوعيات قليلة متباعدة في التسلسل الزمني.

إن الوثائق تعكس صورة الماضي بأحداثه و أخباره و مجريات الأمور فيه، و لذلك فهي مصدر مهم من مصادر البحث التاريخي، و أن قيمة أية وثيقة ليس بقدمها أو بالشخص الذي دونها و إنما بالمعلومات المشتملة عليها.

و يعتبر البحث عن الوثائق من أهم العمليات الأساسية لكتابة التاريخ، و كشف كمية من الوثائق المهمة عن الموضوع المعين هو الذي يحدد إمكانية الاستمرار في بحثه، أو العدول عنه إلى غيره و الباحث الذي يفوته الوصول إلى مجموعة الوثائق الأساسية لبحثه قيمة علمية، مهما كانت كفايته و قدراته على العمل.

إن المادة التاريخية التي تشتمل عليها الوثائق ثابتة، غير أن تناول الباحثين لتلك الوثائق و الجانب الذي يؤكدون عليه هو الذي يظهر فيها بعض التباين، و هذا يتوقف إلى حد كبير على تصورات الباحثين لمدلولات الوثائق و طريقة تحليلها و قابليتهم على إثبات صحتها و عدم تزويرها.

كما تعد الوثائق حنطة طاحونة المؤرخ، أي المادة الخام الأصلية التي تمد المؤرخ بالحقيقة المجردة التي لا دخل فيها للميول الشخصية، فهي تمثل المخزون الاستراتيجي للحقائق التيبحتاجها المؤرخون، و لا شك

أن هناك تناسبا طرديا بين توافر الوثائق و بين تصحيحالتاريخ و توافر الثقة في المصادر الروائية، فالوثائق هامة جدا لكتابة التاريخ، حيث أن ندرة لوثائق التي وصلت إلينا من بعض العصور التاريخية، أوجدت صعوبة كبيرة في معرفة حقائق هذه الفترات.

إذن التاريخ يصنع من الوثائق، هذه بديهية يجب أن يدركها كل باحث وراء الحقيقة التاريخية، فلا يمكن أن يقوم التاريخ إلا على أساس من الوثائق التي تدعم رأيا و تنفي رأيا، و لهذا فالعثور على الوثائق الخاصة بالموضوع الذي ندرسه عملية هامة جدا، و الغالب أن الباحث لا يقوم بمعالجة موضوع معين إلا بعد الأكد من توفر الوثائق التي تلقي الأضواء على حقيقة الأحداث.

فالبحث عن الوثائق في الأماكن التي نظن و نرجح إنها موجودة بها، هي الخطوة الأولى في منهج البحث التاريخي، و العثور على الوثائق الأصلية المتعلقة بموضوع البحث يعتبر كسب هام يفتح الباب أمام الباحث ليناقش الآراء المختلفة فيرجح رأيا على رأي آخر معتمدا على الوثائق التي تحت يديه، و البحث يقيم عادة بمدى استناده على الأصول التاريخية فقيمته تتوقف في الواقع على الأصالة أي المعلومات الجديدة الأصيلة التي يضيفها إلى معرفتنا عن طريق عملية التوثيق.

و منه يمكن القول لا وجود لتاريخ دون الوثائق التي تعتبر كالإنارة التي يعتمدها المؤرخ لينير بحثه إخراجه إلى النور. فإذا كانت الأحداث تصنع الأرشيف فالأرشيف يعيد تشكيلها و يقيم صناعة التاريخ، و لما كان للأرشيف كل هذا الثقل على السياسات و الإدااات كانت الغزوات و التوغلات الاستعمارية أول ما تقوم به و تستهدفه هو الاستحواذ على كنوز الدول التي تستعمرها، و التي تشكل تراثها و صلب سيادتها ألا و هي الأسس التي ترسم عليها المعالم التاريخية لنشأة الدولة و قانونيتها.

أهمية تحليل النصوص التاريخية:

1- اكتساب معارف جديدة و تدعيم و تعميق فهمنا للمعارف التي اكتسبناها.

2- التعود على المحاكمة العادلة في تفسيرنا للأحداث التاريخية الموضوعية.

3- التعرف على صيرورة التاريخ و حوادثه عبر عصور مختلفة و التي لا يمكن ملاحظتها مباشرة في الحاضر إلا ببعث هذا الماضي و دراسة حيثياته حسب تعبير المؤرخ الفرنسي ميشلي.

4- تولد الوثيقة في نفوسنا الرغبة و حركة القيام ببعض الأعمال المفيدة لقضايا مجتمعنا و تخليصه من خطاياه العديدة المتكررة.

5- التعرف على الوسائل والكيفيات التي استعملت في زمانه وهي عادة ما تكون معقدة ومبهمة مقارنة بعصرنا الحاضر ولفهمه يجب تحليل الشروط التي أوجدتها إذ لا توجد حوادث منعزلة لذاتها بل هي حوادث تؤلف قضايا حسب مفهوم توينبي للتاريخ.

6- التعود على النزاهة والأخذ بمبدأ الشك و النسبية والحد من الانسياق وراء ضجيج الأفكار والقناعة بالحدث بعد التمحيص والتحليل.

7- وتكمن أهمية لتحليل النصوص التاريخية في اعتبارها وسائل كفيلة بمعرفة الحدث التاريخي والاستفادة من الماضي لبناء المستقبل .